أسطـورة الطّوفـان في الأدب العــربي

مديحة عتيق ❖ المركز الجامعي سوق اهراس. الجزائر

❖❖❖❖❖

ملخص
الطوفان إحدى الأساطير العالمية التي تداولتها حضارات كثيرة (يونانية، وبابلية، وإفريقية،..)، وكانت جزءا من الثقافة الدينية، فقد أشارت التوراة والقرآن إلى هذا الموضوع في شكل *قصصي، تحكي قصة* "الطوفان" عن غضب الله/الطبيعة على البشر لأنّهم "أخطأوا"، فكان جزاؤهم أمطارا غزيرة طهّرت الأرض من الدنس.
تحـاول هـذه المداخلـة أن تتبّـع حضـور هـذا الموضوع في الأساطير، والديانات، والأدب العربي، قديمه ،وحديثه، شعره ،ونثره لتقف عنـد ثوابـت هـذا الموضـوع ومتغيراتـه، ,تـدرس كيـف اسـتثمر الأدبـاء العـرب هـذا الموضوع ليعبّروا عن القضـايا الاجتماعيـة، والمشاكل السياسية ،والمسائل الدينية...الخ.

Résumé
« The Flood» is a universal myth, the records of which are found in such ancient civilizations as the Greek, Babylonian, or African—to mention but these. It is also a religious theme. The Bible and the Koran referred to this issue in narratives that tell of the misdeeds of the faithless and heathen punished with God's Great Flood, which actually purified their profane land. This paper attempts to bring to the fore the theme of the Flood in mythology, theology, and ancient as well as modern Arabic literature (poetry and fiction). The aim is to examine the elements of change and permanence in this theme to depict Arab authors' use of it in discussing social, political, and religious issues.

❖❖❖❖❖

مقدّمـة:

الطوفان أسطورة كونية عرفتها معظم الحضارات القديمة سواء التي قامت بينها صلات تاريخية كالحضارة اليونانية والحضارات الشرق أوسطية، أو التي لم يقم بينها أي روابط ثقافية كحضارات إفريقيا الوسطى، والبرازيل، وأمريكا الوسطى، فقد عرفت كل هذه الثقافات أساطير ومرويات عن حدوث طوفان مائي أو ناري في مكان ما، وفي لحظة معينة دمّر جزءا كبيرا من المعمورة أعقبه ميلاد جديد وحياة جديدة، ففي الأساطير اليونانية يروى « أنّ كبير الآلهة زوس قرّر تدمير الحياة، فأرسل طوفانا عارما استمرّ تسعة أيام، قضى على الناس أجمعين إلاّ رجلا وامرأة هما ديكليون وزوجته فرحة طافا بسفينة استقرت بهما على قمة جبل البرناس، وقد رأى زوس بعد ذلك أن يسرع بإعادة الحياة إلى الأرض، فأمر الزوجين أن يقوما برمي الأحجار الصغيرة، فتحوّلت هذه الأحجار مخلوقات حية »[1].

تروي الميثولوجيا الأغريقية أسطورة الطوفان في بضع أسطر لا تسمح بمعرفة أسبابه ومراحله، وغاياته، واكتفت بالإيحاء بأن البشر أصلهم تراب بدليل أنهم من سلالة الأحجار التي رماها الناجيان من الطوفان. تجاوزت الأساطير الرافدية القديمة ذلك الاقتضاب والإيجاز، وأفردت نصوصا أدبية شبه كاملة لهذا الحادث الكوني، وسنتوقف عند أسطورة سومربة وأخرى بابلية فصّلتا الحديث عن الطوفان بشكل يسمح باستخلاص ثوابت هذه الأسطورة ومتغيراتها، وأهمّ عناصرها الحكائية التي سينطلق منها الأديب العربي لاحقا في معالجته هذه الأسطورة، ولنبدأ بـ:

الأسطورة السّومرية :

تروي الأساطير السومرية أنّ مجمع الآلهة قرّر إفناء البشر، لكن لم يحظ هذا القرار بقبول الجميع، فهذه إنانا المقدسة تنوح البشر، وإنكي إله الحكمة يقرّر سرّا أن ينقذ بذرة الحياة على الأرض، فيتصل برجل صالح تقي يدعى زيوسدرا، ويفشي له سرّ الآلهة، ويدلّه على فكرة بناء السفينة التي ستنقذ الجنس البشري من الفناء من الطوفان القادم :

« هبّت العاصفة كلها دفعة واحدة
ومعها انداحت سيول الطوفان فوق وجه الأرض
ولسبعة أيام وسبع ليال
غمرت سيول الأمطار وجه الأرض
ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة
ثمّ ظهر أوتو (إله الشمس) ناشرا ضوءه في السماء على الأرض
فتح زيو سدرا كوة في المركب الكبير

تاركا أشعة البطل أوتو تدخل منه (...)
زيوسدرا الملك سجد أمام آنلو وإنليل
ومثل إله وهباه روحا خالدة
عند ذلك زيوسدرا الملك
دعي باسم حافظ بذرة الحياة » [2]

آمن السومريون بتعدد الآلهة، وبوجود تواصل بين عالمها وعالم البشر الذي اختير منه زيوسدرا لينقذ بذرة الحياة، كان موتيف " المنقذ" نقطة اشتراك بين الأسطورة اليونانية والسومرية ،وأضافت هذه الأخيرة بأنه رجل صالح وقيّم على المعبد، أي أنّ اختياره لم يكن عشوائيا كما في الأسطورة اليونانية بل اعتمد مقاييس أخلاقية / إيمانية، ورغم ذلك ظل سبب الطوفان مجهولا مما يجعلنا نعتقد أنه مجرد رغبة ذاتية لبعض الآلهة في إفناء البشر وإبادتهم.

الأسطورة البابلية :
حفلت الحضارة البابلية بمآثر أدبية تناولت أسطورة الطوفان، وكان أهمها ملحمتان شهيرتان هما ملحمة " أتراحسيس" و" جلجامش"، تروي الملحمة الأولى أنّ الآلهة ضاقت ذرعا بالأعمال الملقاة على عاتقها، فطلبت من الإله إنليل أن يخلق الإنسان ليقوم بدلا عنها بعبء العمل، واستحسن إنليل هذه الفكرة، فخلق البشر، لكن سرعان ما زاد عددهم، وعلا ضجيجهم وضوضاؤهم بشكل أزعج الإله إنليل وحرمه النوم، وقرر معاقبتهم، وسلّط عليهم الطوفان، ليقضي عليهم قضاء مبرما :

« وجاء الطوفان / وفتك في شدّته بالناس كالحرب العوان
وصار الأخ لا يرى أخاه
ولم يكن الناس ليميزوا من هول الهلاك
وخار عباب الطوفان كالثور الوحشي
وغطّى الناس الظلام الدامس. ..ولم تظهر الشمس »[3]

أوضحت الأسطورة البابلية دافعا أخلاقيا/سلوكيا يبرّر حدوث الطوفان وهو تزايد عدد البشر وعلوّ ضجيجهم، كما شدّدت على الصلة الوثيقة في نظر البابليين بين عالم الأرض وعالم السماء، ففي ثنايا المشاهد الطوفانية نلمح صورة مزدوجة للطبيعة ،إذ رآها البابلي صدرا حنونا ويدا قاسية في الوقت نفسه، ولعل هذا ما جعله يتخيل حدوث خلاف في صفوف الآلهة حول تقرير مصيره، وانتهى الخلاف بحدوث الطوفان، وإنقاذ بذرة الحياة في آخر لحظة. تعزز أسطورة الطوفان في ملحمة

جلجامش هذه الرؤية، إذ جاءت تفاصيلها وفية للأساطير السابقة، ولا تكاد تختلف إلاّ في اسم الرجل الصالح الذي صار يدعى " أتونبشتم"، أو في بعض التفاصيل المتعلقة بعدد أيام الطوفان ولياليه.

الطّوفان في العهد القديم :

حفلت التوراة بحديث مستفيض عن أسطورة الطوفان، إذ ذكرت أسبابه، وعدد أيامه ولياليه ،وتفاصيل بناء السفينة، ومشاهد العواصف والأمطار، وأنواع الحيوانات التي ركبت السفينة، ومن يقرأ الإصحاح السادس إلى الإصحاح التاسع من سفر التكوين يلمح تأثرا توراتيا عميقا بالأساطير السابقة، ولكن يبدو أنّ كتبة التوراة الذين يؤمنون بإله واحد أرادوا أن يخلّصوا قصتهم من العناصر الوثنية (مجمع الآلهة، انقسامهم بين مؤيد ومعارض...)، فتصوّروا أنّ سبب الطوفان هو زيادة شرور البشر، وندم الإله على خلقه لهم " ورأى الرب أن نسل الإنسان قد كثر في الأرض (...) فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم وطيور السماء، لأنني حزنت أني عملتهم، فأما نوح فوجد نعمة من الرب..." [4]،كما أشارت التوراة على غرار الأساطير السابقة إلى طيور الاستطلاع، ومكان رسوّ السفينة، وسيوضّح هذا الجدول بشكل أفضل مظاهر تأثر النص التوراتي بالأساطير السّابقة :

الأساطير	اليونانية	السومرية	البابلية	التوراة
سبب الطوفان	/	/	ضجيج البشر	شرور البشر
صاحب السفينة	دكاليون	زيوسدرا	أتراحسيس	نوح
مدة الطوفان	9 أيام بلياليها	7أيام يلياليها	6 أيام بلياليها	40 يوما وليلة
طيور الاستطلاع	/	/	حمامة. سنونو غراب	غراب حمامة ثلاث مرات
مكان رسوّالسفينة	جبل البرناس	أرض دلمون	أرض دلمون	جبل أرارات

الطوفان في القرآن:

تعرّض النص القرآني بشيء من التفصيل في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، ونوح، قال تعالى : « » (وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون (...) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين)[5] نستخلص من هذه الآيات أنه لا يوجد قرار مسبق بتدمير البشر كما ذكر ذلك في الأساطير والتوراة، ولا أدلّ على ذلك من أنّ الرجل الصالح المختار "نوح" هو رسول قومه قبل قرار الطوفان في حين أنّ الرجل المنقذ في الأساطير اختارته الآلهة بعد اتخاذ قرار الطوفان، كما لم يتعرض النص القرآني لتفاصيل الحادثة، فلم يذكر حجم الفلك، وأنواع الحيوانات، ومدة الطوفان، وارتفاع المياه، وطيور الاستطلاع، بل اكتفى بإشارة مبهمة لمكان رسوّ السفينة وهو جبل الجودي، وركّز على العبرة الأخلاقية لهذه الحادثة المهولة.

الطوفان بين الحقيقة التاريخية والتهويل الأسطوري:

أجمعت الأساطير والكتب المقدّسة على حدوث الطوفان في لحظة ما من تاريخ البشرية، وفي مكان ما من أنحاء المعمورة، وأفاضت الحديث في ذكر تفاصيله، ودوافعه، وغاياته، وتشابهت في ذلك حينا، واختلفت أحيانا، وأثار هذا الموضوع جدلا واسعا بين علماء الآثار والجيولوجيون فراحوا يبحثون حقيقة الموضوع بشكل علمي، ميداني حتى ظهر ما يسمّى "علم أبحاث سفينة نوح"، « ففي الفترة الواقعة بين عامي 1925-1930 قام العالم البريطاني ليونارد وولي وزوجته كاترين بدراسة موقع " أور" القديمة، فأجرى حفريات عديدة (...) ووصل إلى نتيجة مفادها أنّ مدينة أور وما يجاورها دفنت رسوبيات عديدة نتيجة طوفان عارم، فهل هو طوفان نوح المذكور في التوراة والقرآن ؟ »[6]

يظل السؤال مؤرجحا بين الشك واليقين وإن كانت كلّ المؤشرات ترجح حدوثه، فقد وضع العلماء أيديهم على أدلة علمية غير حاسمة حول الطوفان وذلك بفضلّ ما عثر عليه الجيولوجيون من المستحاثات والأحافيز، فقد عثروا على أصداف وأسماك متحجرة في أعالي الجبال، وهي لا تكون عادة إلاّ في البحار "[7] وسواء ثبت حدوث الطوفان أو لم يحدث، فإنّ هذه الأسطورة تظل من منظور نفسي تلبية لاشعورية لرغبة الإنسان في تدمير ذاته، وإفناء نوعه البشري إفناء معنويا ،إننا نتساءل مع "فراس السواح" « هل تشف هذه الأساطير عن حقائق نفسية، ونوازع خافية باطنة ؟ هل هي طغيان النزعات التدميرية الكامنة في لاشعور البشر، ورغبة لاواعية في تدمير الذات ؟ هل هي إحساس عارم بالإحباط من حضارة تسير دوما في اتجاه مخالف لسعادة الإنسان، حضارة يجب تدميرها كلما أحكمت حلقاتها، وضيّقت خناقها على صانعيها ؟ »[8]

لم يكن الأديب العربي معنيا بمدى صدق هذه التفاسير، ومدى شرعيتها ومطابقتها للحقيقة والموضوعية، بل كان مشغولا بمدى عمقها وامتلائها بالدّلالات والرموز، فهل وجد مبتغاه فيها ؟ ذلك ما سنحاول التحقق منه في هذه الصفحات:

الطوفان في التراث العربي / إشارات عابرة:
لم يكن حظ هذه الأسطورة وافرا في تراثنا العربي، فلا نكاد نجد لها حضورا في المرويّات الأدبية، والتاريخية إلا ما ذكر في التفاسير التي حفلت بالحديث عن تفاصيل هذا الحادث المهيب، فقد أفاض الطبري وابن كثير وغيرهما.في الحديث عنه متأثرين بالإسرائيليات، والمرويّات الشفوية في البلدان المفتوحة، أما في النصوص الأدبية، فنجد إشارة عابرة في ديوان أبي نواس، حيث يقول : « كانت على عهد نوح في سفينته من حرّ شحنتها والأرض طوفان » [9]

جعل أبو نواس الطوفان معلما زمنيا يدلّ به على قدم الخمر، ومدى عتقها، فلم يكتف بالإشارة إلى أنها قديمة العهد ،تعود إلى أزمان سحيقة، بل جعل قدمها يمتدّ إلى زمن الطوفان، وهو زمن حيّ في لاشعور المتلقي، كما يدلّ هذا الربط بين الخمر والطوفان على غلائها، وسموّ قيمتها، فالشاعر يخبرنا ضمنيا بأنّها من الأشياء الغالية التي حملها نوح في السفينة، ولا عجب أن يفعل ذلك، فهو مدرك لجودتها، وقيمتها الثمينة.
عزف الأدباء العرب القدامى على هذه الأسطورة نظرا لموقفهم الحسّاس تجاه الأساطير عموما لأسباب دينية وعقائدية على الأرجح.

الطوفان في الشعر العربي الحديث والمعاصر:

انتبه الشاعر العربي المعاصر لما تعجّ به أسطورة الطوفان من طاقات دلالية، ومستويات إيحائية، فطعّم بها نصوصه ليعبّر بها عن همومه السياسية، والقومية، والفكرية عموما، وتفاوت حضور هذه الأسطورة في نصوص الشعراء العاصرين باختلاف همومهم الإيديولوجية، ورؤاهم الفنية، وسنكتفي ببعض الأمثلة التي تنوّعت فيها دلالة الطوفان تنوّعا مثيرا، إذ بدا أحيانا لعنة سياسية، أو لعنة بشرية، أو لعنة إلهية، وبدا أحيانا أخرى فعلا ثوريا، أو تمرّدا وجوديا، وسنفصّل الأمر كما يلي :

الطوفان لعنة صهيونية :
وظف السياب جزءا يسيرا من أسطورة الطوفان في قصيدة " قافلة الضياع"، وذلك في قوله :

النار تتبعنا، كأنّ مدى اللصوص وكلّ قطاع الطريق
يلهثن فيها بالوباء، كأنّ ألسنة الكلاب
تلتزّ منها كالماء البارد وهي تحفر في جدار النّور باب
تتصبّب الظلماء كالطوفان منه فلا تراب
ليعاد منه الخلق، وانجرف المسيح مع العباب
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق
فاجتاحه الطوفان حتى ليس ينزف منه جنب أو جنبين
النار تركض كالخيول وراءنا... "[10]

كان الطوفان في هذه القصيدة ناريا وليس مائيا، وهو بذلك يخالف ما تواتر في أساطير الشرق والديانات الكتابية، وعبّر به الشاعر عن المدّ الصهيوني الجارف الذي اجتاح فلسطين، فأمات الحرث والنسل، وزرع الفناء أينما حلّ، ولم تأت هذه العلاقة التشابهية بين الطوفان والمدّ الصهيوني واضحة / مباشرة في القصيدة، بل دلّ عليها السياق العام للنص الذي جاء مفعما بنبرة مأساوية حادة زادتها الأسطورة عمقا ودرامية، فقد جعل الشاعر الطوفان / المد الصهيوني فعلا تدميريا أو فناء مطلقا لا يحمل في طياته بذور الخلق وإعادة تعمير وذلك في قوله (فلا تراب ليعاد منه الخلق)، وهو بذلك يخالف ما جاء في الأسطورة التي انتهت نهاية تفاؤلية ، ولعلّ مردّ هذا الانزياح هو يأس الشاعر من قدرة البلدان العربية على صنع سفينة نجاة تنقذهم من الطوفان الصهيوني الذي أتى على الأخضر واليابس على حد سواء.

الطوفان لعنة إلهية :

يتصوّر سميح القاسم في قصيدته " الخطيئة والوثن" الطوفان لعنة إلهية حلّت بالبشر من حيث لا يدرون، وهو أيضا لا يدري للطوفان سببا أخلاقيا، أو دافعا إلهيا يبررّه، فإذا كان البشر في الطوفان الأسطوري قد غلوا في طغيانهم وجبروتهم فكان من العدل ومن المنطق أن يعاقبوا بالفناء، فإنّ البشر في قصيدة سميح القاسم لم يألوا جهدا في التعبّد للإله (رع)، والتقرّب إليه بالقرابين، والذبائح "البريئة"، ورغم ذلك كان مصيرهم الدمار والفناء :

« لا سرّ في صمت الإله؟؟
لاشيء غير الجوع والحرمان والطوفان
يجتاح القرى السوداء...يكتسح العبيد
الضاربين بلا وجوه، يحملون جبال صوان
على الأكتاف، داكنة النجيع

يحزّ فيها النير مذ كانت وتنهشها الضباع
والرب(رع)/ مازال يعبده الملايين الرعاع
والمؤمنون الآبقون وجوههم متوتّرة/ في خنوع أبله... »[11]

إذا كان الطوفان الأسطوري أنزل بفئة معينة من البشر هم " الخاطئون"، فإنّ طوفان النّص قد استنزل بفئة " الكادحين والضعفاء" الذين كانوا صيدا سهلا لانتقام إلهي يخلو من الحكمة والعدالة.

يخاطب سميح القاسم جموع الضعفاء بلهجة شديدة ملؤها الغضب والتقريع والإنكار، لأنّ هؤلاء" المؤمنين" استسلموا لقدر ظالم، تحرّكه قوى ما ورائية غير حكيمة دون أن يكلّفوا أنفسهم مشقّة تغيير واقعهم بوسائل مادية / بشرية تحميهم خطر الطوفان الجارف الذي يتهدّد كيانهم، بل اكتفوا بالقرابين و" الدعاء" وانتظار حلول من السماء.اعتمد الشاعر أسطورة الطوفان متكأ ينقد من خلاله آليات العقل الشرقي الذي يلوذ إلى الحلول الميتافيزيقية لحلّ مشاكله الواقعية متوقعا أنّ العدالة في السماء وهي الكفيلة بإنقاذه من المدّ الطوفاني الذي يتهدده ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

الطوفان لعنة بشرية :

يشير "محمد منذر لطفي" في قصيدته " ما بعد الطوفان" إلى حادث الطوفان (القديم) الذي أمات الحرث والنسل وألوان الحياة، ثمّ يتساءل الشاعر متوجّسا إذا كان الجنس البشري عرضة لطوفان آخر؟ ويردف سؤاله هذا بآخر أكثر تشاؤما ورعبا، وهو : هل هناك نوح آخر يتحدّى قوى الدمار الشامل التي تسعى بأيّ ثمن لإرضاء شهوتها التدميرية:

«. .. ولكن أين " نوح" من جديد؟
علّه إن ولولت ذات سماء
فوق سطح الأرض آلف الشياطين الحبيسة / واختفت كل علامات الحياة
وتجلّى شبح الإنسان. ..والنسيان من بحر العدم
ومضت تورق في صمت عميق كلّ أشجار الندم(...)
يولد المنقذ من ليل النهايات. ..من بحر الممات...
يتحدّى العدم الموحش...يطوي الموت...يأتي بالحياة...
يفرغ القارب إنسانا. ..وطيرا...ونبات
أم ترى لن تشهد الطوفان ميلادا لنوح من جديد ؟؟ »[12]

يوضّح الشاعر في هامش النّص أنّ " آلاف الشياطين الحبيسة" هي الحرب الذرية، هي الطوفان الجديد الذي تصنعه الإرادة الإنسانية، وإذا كانت الإرادة الإلهية هي المسؤولة عن الطوفان الأسطوري حيث جعلته عقابا رادعا للبشر بسبب كثرتهم وضجيجهم أو بسبب طغيانهم فإنّ الطوفان العصري هو تلبية نرجسية لإرادة " البعض" في استخبار قدرة الإنسان على التدمير والإفناء بشكلساديّ، لا يبقي أيّ بذرة حياة تحسّبا لأيّ احتمال في البعث والخلاص.

يعكس الطوفان في هذا النّص صورة قاتمة للحضارة التكنولوجية التي عزفت على وتر الغرور في نفس الإنسان المعاصر، فجعلته يعتقد بأنّه بلغ مرتبة "الإله " الذي يمتلك بيديه إرادة "البقاء" و"الفناء"، يسارع الشاعر في كشف بطلان هذا الوعي الزائف حين صوّر الطوفان فعلا بشريا جنونيا أملاه الغرور والأنانية والثقة المطلقة بالمنجزات التكنولوجية التي امتلكت إرادة "الفناء" لكنها ظلت عاجزة على امتلاك قدرة " الخلق والبقاء".

الطوفان لعنة سياسية :

يتصوّر أمل دنقل في قصيدته " مقابلة خاصة مع ابن نوح" أنّ مدينته اكتسحها الطوفان، فإذا كلّ شيء يعلوه الماء، درجات البيوت، ومبنى البريد، والبنوك، والتماثيل، ومستشفيات الولادة، وأروقة الثكنات الحصينة. .الخ ،فهبّ الجميع إلى السفينة محاولين الخلاص والنجاة من هذا المدّ الكارثي ماعدا الشاعر، وبعض رفاقه المخلصين لقضية الوطن :

" وصاح بي سيّد الفلك قبل حلول السكينة:
انج من بلد لم تعد فيه روح
قلت طوبى لمن طعموا خبزه في الزمان الحسن
وأداروا له ظهره يوم المحن
ولنا المجد نحن الذين وقفنا (وقد طمس الله أسماءنا)
نتحدّى الدّمار
ونأوي إلى جبل لا يموت(يسمّونه الشعب)
ونأبى الفرار/ ونأبى النزوح"[13]

وظّف أمل دنقل أسطورة الطوفان توظيفا عكسيا، فإذا كانت سفينة نوح تحمل على متنها المؤمنون والحكماء والأخيار، فإنّ الأمر غير ذلك في تجربة الشاعر المعاصرة، فالذين صعدوا إلى السفينة هم سبب الطوفان، هم الذين أحلّوا

الخراب بالمدينة، وقد ذكرهم الشاعر واحدا واحدا (المغنون - سائس خيل الأمير - المرابون- قاضي القضاة - حامل السيف - راقصة المعبد- جباة الضرائب - عشيق الأميرة في سمته الأنثوي. ..) وقد رفض الشاعر ومن معه الاحتماء بالسفينة، وحاولوا يائسين أن يتصدوا للطوفان لإنقاذ المدينة / الوطن.

اعتمد الشاعر اعتمادا نسبيا على أحداث القصة الدينية، وتمّ ذلك بشكل تناقضي، إذ غيّر موتيفات الأسطورة تغييرا جذريا بما يتلاءم مع تجربته المعاصرة، وجاءت قصيدته نصا استرساليا، تداعت فيه الصور الشعرية بشكل يصعب معه اجتزاء مقطوعة منه للتمثيل ،إذ « تراكمت المشاهد التي تسقط فيها أدوات الوصل والربط، بل تتراكم الكلمات ذات الدلالة الصورية متلاصقة دون ملاط لتوازي الازدحام الذي تكون عليه المدينة دون صلات واضحة... »[14].

الطوفان رفض وجودي:

ينادي أدونيس في قصيدته " نوح الجديد " برغبته العارمة في التغيير المطلق، جرّه إليها نوع من اليأس واللاجدوى سرعان ما ساقاه إلى الإيغال في غياهب الرؤية الميتافيزيقية، ويتضح ذلك من خلال طريقته في استثمار أسطورة الطوفان في القصيدة المذكورة سابقا، فقد بدأت القصيدة بمشاهد صورية تراكمت بشكل طبيعي، واستمدّت مادتها الحكائية ومرجعيتها المعرفية من قصة الطوفان المعروفة، يقول الشاعر:

« رحنا مع الفلك، مجاذيفنا
وعد من الله وتحت المطر
والوحل، نحيا ويموت البشر
رحنا مع الموج وكان الفضاء
حبلا من الموتى ربطنا به
أعمارنا، وكان بين السماء
وبيننا نافذة للدعاء »[15]

اعتمد الشاعر في هذا المقطع تقنية " التوالد الدلالي"، حيث تناسلت الصور من بعضها البعض مرتبطة مع التجربة الأدونيسية حسّا وشعورا وفكرا، لكن سرعان ما يحدث الشاعر شرخا دلاليا في القصيدة والأسطورة معا، فإذا كان نوح لم يتفاجأ حين نجا ومن معه من الطوفان، فإنّ أدونيس يخترق أفق المتلقي بقوله:

« يا ربّ لم خلّصتنا وحدنا
من بين كلّ النأس والكائنات

وأين تلقينا، أفي أرضك الأخرى ؟
أفي موطننا الأول ؟/ في ورق الموت وريح الحياة /. ..آه لو لم نصر بذرة/
للخلق، للأرض وأجيالها / آه لو لم نزل طينة أو جمرة أو لم نزل بين بين/
كي لا نرى جحيمه وربّه مرّتين » [16]

لم يأت الطوفان في نص أدونيس رمزا للتطهير والتغيير، بل كان فرصة ثمينة للتخلص من عبث الوجود، وثقل الحياة، لذا بدا يائسا، ناقما لأنه نجا وعاد إلى الحياة ثانية، يتجرّع مرارتها، ويواجه أسئلتها ثانية، « فالشاعر من خلال هذه التساؤلات التي يغالب بها إرادة الله محاولا تحقيق طموح من نوع آخر يجسّد عزمه على تغيير الخلق بالطوفان، وهذه الرؤية الفوضوية تبرز صفة اللاانتماء الوجودي مثلما عرفت في فلسفة العبث الغربية، اكتشف الشاعر من خلالها أنه لا معنى لمصيره المحدود... »[17] لذا كان يرى في الطوفان ملاذا وجوديا يحقق به ذاته حين يختار الموت عن الحياة.

الطوفان فعل ثوري:
يأتي الطوفان في قصيدة " بغداد" لإسماعيل ركاب فعلا خلاصيا، يتمنّى الشاعر حدوثه عاجلا ليطهّر أرض العراق من الغزاة الدخلاء الذين يجهلون أو يتجاهلون أنّ العراق هي أرض إنكي - إله الماء -، هي أرض سومر التي شهدت قديما حادث الطوفان الذي كان فعلا تطهيريا خلّص أرض سومر من أوحال المذنبين والخاطئين :

« بغداد. ..هل من ومضة كالبرق/ تجعلها جحيما / تحت أقدام التتار الخائبين /
نيرون هذا العصر يا بغداد / منقطع الجذور
نيرون هذا العصر ما قرأ السطور (...)
ما همّه الطوفان. ..لا حتى ولا. ../ إنكي الذي زرع الوباء / بأرض سومر
يشمخ بالإشراق / يرسل وهجه كالشمس / من كل البقاع السومرية
في بلاد الرافدين / انهض يا شعب العراق
فليس مثلك من يباع ويشترى
ويظل مغلول اليدين. .. »[18]

يأمل إسماعيل ركاب أن يتكرر حدوث الطوفان ليطهّر عراق اليوم من نيرون العصر - يقصد الغزو الأنجلو أمريكي -، ويسعى الشاعر لأن يواجه قوة النار / نيرون (الذي أحرق روما قديما) بقوة الماء/ الطوفان متوقعا في حماس

شديد أن تكون الغلبة للطرف الثاني، فهو يعقد على الطوفان آمالا كبيرة في تطهير أرض العراق من الدنس الذي ألمّ بها، ومن ثمّة لم يكن الطوفان في هذا النص لعنة أو كارثة إنسانية بل جاء فعلا خلاصيا، وثورة تطهيرية جارفة.

ترتبط أسطورة الطوفان بالثورة في قصيدة الشاعر الجزائري عثمان لوصيف " الطوفان" الذي بدا معادلا فنيا للظلمات الحالكة التي تسبق شعاع الفجر، وكأن الفناء ليس هو آخر كل شيء، بل إنّه نقطة انطلاق تعطي الحياة معنى جديدا، وكان لوصيف مسكونا بالطوفان في عنفه وجبروته وشهوته التطهيرية :

« وترامى الطوفان من كل فج زاحفا من فوق الربى والبطاح
عاصفا نازفا مبيدا مريعا خاسفا جارفا جميع النواحي(...)
كنت نوحا في فلكه يتحدّى كربه في قاموسه الفياح
حاملا في دنيا سفينته من كل زوجين اثنين نكاح
مبحر في أحلامه غائص في ذكريات الإخصاب والإقماح
هذه فلكي فاركبوا أو تلاشوا في عراك الأمواج والأرياح
سوف أبقى خليفة وستنمو في ثراها ذريتي ولقاحي... » [19]

الطّوفان في القصّة / الرّواية العربية :

وجد الروائي المغربي عبد السلام بنعبد العالي ضالته في أسطورة الطوفان التي استثمرها بمهارة فنية عالية في روايته الشهيرة " الطوفان الأزرق" وهي رواية من أدب الخيال العلمي، تبدأ الرواية باختفاء بعض العلماء المشهورين في ظروف غامضة، إذ يتمّ نقلهم إلى جبل الجودي في صحراء المغرب حيث يتواجد مجموعة من العلماء الذين قرّروا الهروب بمواهبهم وأبحاثهم في مكان مجهول يدفنون فيه كنوز إنتاج العقل ومع مرور السنين تمكن علماء الجودي من قطع شوط كبير في مختلف ميادين المعرفة، لذا أصبحوا شركاء في أعظم مشروع إنساني (مشروع الإشراف على تشكيل مستقبل الإنسان) بل على كتابة سفر تكوين جديد، وقد بنى علماء الجودي عقلا إلكترونيا أسموه " معاذ" لخزن كنوز البشرية منذ بدايتها، كما أطعم بترجمات عن حياة العلماء، تتناول أدق تفاصيل حياتهم الصحية والشخصية والنفسية، لكن شيئا فشيئا أصبح معاذ خارجا عن سيطرة الإنسان، إذ أوتي قدرات إلهية تجعله سيدا على الإنسان بعد أن كان آلة صماء.

أعلن في جبل الجودي عن مؤتمر يدرس مستقبل الإنسانية، وانقسم العلماء إلى ثلاث اتجاهات، يؤيد الأول نظرية الإبقاء على الإنسان الحالي وانتظار نضجه، وكان هذا الاتجاه يمثل الأغلبية، ويؤيد الاتجاه الثاني فكرة الاستيلاء والإصلاح ،وذلك بتعطيل كل مصادر الطاقة ونزع السلاح، ثم إشراك البشرية في عمل خيّر خالد، أمّا الاتجاه الثالث ـ وهو رأي الأقلية ورأي معاذ ـ يتمثل في إفناء البشرية

بطريقة رحيمة لا ألم فيها عن طريق الطوفان الأزرق، وهو شعاع سري أزرق، ثمّ تنظف الأرض من آثار هذا الشعاع ليعاد تعميرها من البداية ،فتخلق حياة جديدة ببشر جدد يستخلفون سابقيهم في تعمير الأرض وبنائها.

استطاع البطل علي نادر أن يقضي على معاذ بالتعاون مع زملائه، فحال دون تطبيق نظرية " الطوفان الأزرق "، كما تمكن من العودة إلى العالم الخارجي لكن لا أحد صدّق روايته، « وهذه النهاية ليست غريبة على كثير كتاب روايات الخيال العلمي، حيث يعلم أنّ مدينته التي أبدعها لا وجود لها في عالم الواقع، فعليه أن يزيلها من الوجود كما سبق له أن أوجدها » [20]

لم يكن الطوفان في هذا النص الروائي فعلا بشريا فحسب - كما وجدنا ذلك في بعض القصائد - بل جاء قرارا تكنولوجيا سطّره كائن آلي صنعه الإنسان لكنه سرعان ما فقد سيطرته عليه حين سلّمه ثقته المطلقة، فانتهى الأمر بأن تقرر الآلة حدوث الطوفان، وإفناء البشر، واستبدالهم بآخرين يخضعون لقوانين و"مزاج" هذا الكائن الآلي، « ومعنى هذا أنّ ما بدأت به رواية " الطوفان الأزرق" من تفاؤل بتطور العلم، وتقدّمه، حيث أعطتنا صورة وردية لجبل الجودي محاه ما انتهت إليه من تشاؤم بسبب تجاوز هذا التقدّم قدرات الإنسان (...) وهكذا انتهى التناقض بين إيجابيات العلم وسلبياته إلى نوع من التعادل، فكأن شيئا لم يكن، وكأنما التهم التقدم العلمي نفسه بنفسه مما أخرج الأحداث كلها عن الزمان ووضعها على حافة الحقيقة والوهم »[21]

يجري القاص العراقي "طراد الكبيسي" في قصته " الطوفان" حوارا خياليا مع نهر الفرات، يبثّه فيه شجونه وهواجسه، لكن سرعان ما يقاطعه نهر الفرات بنبوءته التي تؤكد أنّ الطوفان وشيك الوقوع « نظر إليّ، وقال (نهرا لفرات) :

- في اليوم السابع ينهزم الغزاة

- قلت : ولكننا في اليوم السابع عشر.

- قال : إنّه ليس ممّا تعدّون من أيّامكم. .. في اليوم السابع، وبعدما جرى ما جرى، تسكن العواصف الهوجاء، وينقطع المطر النازل من السماء، وتكف الينابيع والآبار والأنهار، وتطلع شمس النهار، ويجرف الطوفان إلى المحيط جثث الحيوانات والغزاة، ويطهر الأرض نهر الفرات (...) فإذا كلّ ميّت مات، وإذا كل ذي خطو فات، وإذا الطوفان يكنس أوضار العدوان » [22]

على الرغم أنّ القاص يبدو وفيا إلى منطوق الأسطورة، إلاّ أنّنا نلمس تلوينات سياسية معاصرة، تتعلق بثورة عارمة توشك على الانفجار في العراق لتعصف بالعدوان الأمريكي، وتطهّر الأرض من دنسه، وهذه الثورة / الطوفان ليست فعلا

قدريا، بل هي حركة داخلية تنطلق من نهر الفرات، وتعززها السماء كتدخل إلهي يضع الأمور في موضعها الصحيح حسب ما يرى الكاتب طراد الكبيسي.

الخاتمة:

تنوّعت دلالات أسطورة الطوفان في النص العربي تنوّعا دلاليا مثريا، فصوّره البعض فعلا ثوريا، أو رفضا وجوديا، أو ثورة عارمة، وجعله البعض الآخر لعنة سياسية، أو بشرية، أو إلهية، أو يهودية ابتلي بها العرب في وقت ما.

بقدر ما حافظ االأديب العربي على معظم موتيفات الأسطورة (التهديد الإلهي، الرسول المنقذ، صنع السفينة، أهوال العاصفة، حال الناجين، مدة الطوفان، ..) فإنّه تعامل معها بوعي فنّي كبير حين أسقطها على قضايا العصر الراهن، كقضية فلسطين المحتلة، والغزو الأمريكي للعراق، والصراعات الداخلية بين الحاكم والمحكوم.

في أغلب المشاهد الطوفانية لم يبحث الأديب العربي عن " المفقود، بل وصف ما هو "موجود" أو بالأحرى بقايا ما هو " موجود"، ليؤكّد أنّ الطوفان ليس هو الفناء بل هو نقطة انطلاق تعطي الحياة معنى جديدا ،وتمنح الوجود دورا فعّالا.

الإحالات:

1- فراس السواح : مغامرة العقل الأول، دار علاء الدين، ط13، دمشق، 2002،ص154.

2- فراس السواح : مغامرة العقل الأول،ص159-160.

3- طه باقر: ملحمة جلجامش، موفم، الجزائر، 1995، ص191 (ملحق حول قصص وأساطير الطوفان)

4- العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح 6، دار الكتاب المقدس، مصر، 1984،ص35.

5- القرآن الكريم، سورة هود، الآية 36-37- 44.

6- محمد فيض الحامدي : الطوفان بين الأسطورة والحقيقة، مجلة التراث العربي ع58، دمشق، 1995.

7-مختار فوزي النعال : الجودي الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح، مجلة التراث العربي ع97، دمشق، 2005.

8- فراس السواح : مغامرة العقل الأول، ص99.

9- أبو نواس : الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي،لبنان، 1953، ص126.

10- السياب : قصيدة قافلة الضياع، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، دت،ص432.

11- سميح القاسم: الخطيئة والوثن، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ص 221.

12- محمد منذر لطفي : قصيدة " ما بعد الطوفان"، ديوان خواطر في الحب والإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (شعر)، دمشق، 2001

13- أمل دنقل : قصيدة " مقابلة خاصة مع ابن نوح " الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، 2003، 455.

14- مختار أبو غالي : المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص22.

15- 16- أدونيس : قصيدة" نوح الجديد"، الأعمال الكاملة،دار العودة، بيروت، دت، 99.

17- السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث،ص63.

18- إسماعيل ركاب : بغداد، جريدة الأسبوع الأدبي، ع دمشق 2005.

19- عثمان لوصيف : قصيدة"الطوفان "،ديوان الكتابة بالنار، دارالبعث، قسنطينة، الجزائر،1982،ص74-75.
20- يوسف الشاروني : يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر ،الكويت، 1994، ص88.
21- يوسف الشاروني : يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية ،ص89-90.
22- طراد الكبيسي: الطوفان (قصة) مجلة الأسبوع الأدبي، ع867، دمشق 2003.

المصادر:

*القرآن الكريم
* الكتاب المقدّس

النصوص الأدبية (مرتبة حسب ورودها في البحث):

1- أبو نواس : الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي،دار الكتاب العربي لبنان،1953
2- السياب : قصيدة قافلة الضياع، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، دت.
3- سميح القاسم: الخطيئة والوثن، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت ، دت
4- محمد منذر لطفي : قصيدة " ما بعد الطوفان"، ديوان خواطر في الحب والإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (شعر)، دمشق، 2001.
5- أمل دنقل : قصيدة " مقابلة خاصة مع ابن نوح " الأعمال الكاملة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون ،2003.
6- أدونيس : قصيدة" نوح الجديد"، الأعمال الكاملة،دار العودة، بيروت، دت.
7- إسماعيل ركاب : بغداد، جريدة الأسبوع الأدبي، ع دمشق 2005.
8- عثمان لوصيف : قصيدة " الطوفان "، ديوان الكتابة بالنار، دار البعث الجزائر،1982.
9- عبد السلام بنعبد العالي : الطوفان الأزرق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.
10- طراد الكبيسي: الطوفان (قصة) مجلة الأسبوع الأدبي، ع867، دمشق 2003

المراجع:

1- السعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث.
2- طه باقر: ملحمة جلجامش، موفم، الجزائر، 1995،. (ملحق حول قصص وأساطير الطوفان).
3- فراس السواح : مغامرة العقل الأول، دار علاء الدين، ط13، دمشق، 2002.
4- محمد فيض الحامدي : الطوفان بين الأسطورة والحقيقة، مجلة التراث العربي ع58، دمشق،1995.
5- مختار فوزي النعال : الجودي الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح، مجلة التراث العربي ع97، دمشق، 2005.
6- يوسف الشاروني : يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1994.